

**القصة القصيرة المغاربية النسائية: أسئلة الوجود عند المرأة:
مجموعة 'للنساء وجع آخر' لـ 'نجاة إدهان' أنموذجا**

**The Maghreb short story and the question of directions:
Questions of existence for woman:
collection of «women have another pain» by Najet Adhan**

د. اليامنة عكرمي

**جامعة قفصة
تونس**

akremiyamna@gmail.com



القصة القصيرة المغاربية النسائية: أسئلة الوجود عند المرأة: مجموعة "للنساء وجع آخر" لـ "نجاة إدهان" أنموذجا

د. اليامنة عكرمي

الملخص:

إنصرف الإهتمام في هذه الورقة البحثية إلى دراسة القصة القصيرة المغاربية النسائية نظرا لارتفاع وتيرة نشر المبدعات المغاربيات لإبداعهنّ على تنوع كتاباتهنّ وأجناسها. وقد رافق هذا التراكم وعي جديد تطوّرت إليه القصة القصيرة وأصبحت تعالج هموم الإنسان وقضاياها بعد أن تخلّصت من الموضوعات التي تعتمد أساسا الخيال وعدلت عن التهويمات والتّحليق بعيدا عن الواقع، بل أثبتت الكثير من الأعمال النسائية أنّ القصة تتطلب موهبة بعينها يكون الفكر فيها واسعا يلمّ بأحوال النّاس ويعرف معادن نفوسهم؛ ومن ضمن هذه القضايا أسئلة الوجود عند المرأة التي ما إنفكت تتخذ القاصّات من القلم أداة لطرح هواجسهن والتعبير عمّا يختلج في نفوسهن.

الكلمات المفتاحية: القصة القصيرة-القصة المغاربية النسائية-الاتجاهات -أسئلة الوجود-الاتجاه الواقعي.

Abstract:

In this research paper, my attention was devoted to the study of the Maghreb women authors, publishing their creative works on the diversity of their writings and their genres. This accumulation was accompanied by a new awareness into which the short story developed, and treated human concerns and issues after it got rid of the topics that depend mainly on imagination, and changed the fantasies that flying evaded reality.

Rather, many women's works have proven that the story requires a specific talent in which a broad intellect, familiar with the conditions of people and essences of their souls.

Among these issues are the questions of existence for the women who has always employed the pen as a tool to highlight her concerns and express what she is confused about.

keywords: Short story-Maghreb feminine story -trends -questions of existence- realistic trend.

1- تمهيد:

ظهرت القصة القصيرة أول ما ظهرت في أواخر السبعينات وقد كان "إيفان تورغينيف" Ivan Tourgueniv (1818-1883) أول من كتب النصوص النثرية القصيرة وتحفل روسيا سنويًا بما يستحق مهرجان "النثر المصغر" تخليداً لذكرى هذا الكاتب الروسي الذي يعد المؤسس الحقيقي لهذا النمط المقتضب من القصة القصيرة كما أنّ عدداً من الكتاب العالميين كتبوا نصوصاً قصصية قصيرة وفي مقدمتهم "انطوان تشيخوف" antoine tchekhov (1870-1904) و"إيفان بوتين" (1883-1953) و"فرانز كافكا" Franz Kafka (1880-1924).

هذا ولا ننسى "أرنست همنجواي" المعروف بأسلوبه الذي وصفه بنفسه أنه أشبه بجبل الجليد الذي لا يرى منه سوى ثمنه أما الأجزاء السبعة فهي مغمورة في الماء؛ فقد كتب أقصر قصة مؤثرة في تاريخ الأدب العالمي، وهي تتكون من ست كلمات فقط: "للبيع حذاء أطفال لم يستعمل قط"¹.

أما في الساحة العربية فيعد محمود تيمور أحد الرواد الأوائل لفنّ القصة العربية. وهو من القلائد الذين نهضوا بهذا الفن الذي شهد نضوجاً مبكراً على يديه واستطاع أن يقدم ألواناً من القصص الواقعية والرومانسية والتاريخية والاجتماعية. ولم يحسم الجدل إلى اليوم حول أول قصة عربية ولكن كثيراً من النقاد والباحثين يشيرون إلى أنّ النصّ الذي كتبه تيمور بعنوان: "في القطار"² باعتباره القصة الأولى والتي نشرها في مجلة السفور عام 1917م وتدور أحداثها في أحد القطارات التي تنقلها شخصيات تعكس أزمات المجتمع كما تراها كل واحدة منها.

وتعتبر القصة القصيرة جنساً أدبياً مستحدثاً في الساحة الأدبية العربية وعلى الرغم من ظهوره في الوطن العربي وإزدهاره في المغرب العربي منذ التسعينات وسنوات الألفية الثالثة إبداعاً وتنظيراً ونقداً وتوثيقاً وأرشفة إلا أنّ هذا الجنس الأدبيّ مازال يطرح قضايا مهمة وإشكاليات كثيرة وعوائق عدّة ويفرز أسئلة عويصة على مستوى المضامين والتجنيس والكتابة والنقد والمواكبة والدعم. وهي مجموعة من الأحداث المتخيّلة المستمدة من الحياة التي مرّ بها الكاتب، يقوم بها شخص معيّن وفي مكان أو زمان معيّنين تترايط أحداثهما وتتصاعد إلى ذروة التآزم ثم تبدأ في التحلّل إلى النهاية³. وهي: "الشكل الجديد الذي تطوّرت إليه الرواية ومنها أصبحت قصة فنية تعالج هموم الإنسان وقضاياها"⁴. والقصة القصيرة تماماً كالرواية جنس أدبيّ حديث لا يتجاوز عمره الحقيقي مائتي عام ومع ذلك فقد مرّ بأشكال ومراحل وتفرّعات بالغة الاتساع والخصوبة.

1- "for sale: baby shoes never used".

2- تعتبر أول قصة مصرية حقيقية أي أنها أول قصة تتحقق فيها ملامح القصة القصيرة وقد ظهرت ضمن المجموعة القصصية "ما تراه العيون" المطبعة المصرية وكتبها، القاهرة، سنة 1927.

3- عماد على سليم الخطيب، في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط 1، 2009، ص 90.

4- محفوظ كحوال، الأجناس الأدبية: النثرية والشعرية، دار نومديا للنشر والتوزيع. (د.ت) 2007 ص 51-52.

هذا وقد مرّت القصة القصيرة بمراحل ثلاث كبيرة وهي:

- مرحلة بحث وتأسيس وبلورة لخصوصية هذا النوع في ثقافتنا قاده الرّواد الكبار.
- مرحلة نضج جعلت من القصة فناً راسخاً وناضجاً وفاعلاً بحيث أصبح لا خلاف على المتعة الفنيّة التي تقدّمها القصة القصيرة والدّور الذي تلعبه في معركة الحياة.
- مرحلة إمتلاك النوع تماماً والتجريب فيه واللّعب بإمكاناته التي لا تنتهي؛ وتلك المرحلة قاده كتاب السّينيّات ومن تلاهم.

وهي -القصة- جنس يرتكز كما هو معلوم على صفات وخصائص فنيّة كوحدة الحدث والشخصيّة وقصر المدّة ويعتمد على تكثيف العبارة. هذا وقد إمتازت القصة القصيرة بقصر حجمها ودقّة مدلولها وتوافقها مع الحياة إذ تعالج هموم الإنسان وقضاياها ولها أصول وقواعد تستند إلى موهبة قاصّها.

وقد تميّزت القصة القصيرة عن الفنون الثّريّة الأخرى بإحساسها المرهف من ذلك الإصغاء العميق لإيقاع الحياة اليوميّة واهتزازات الحركة الاجتماعيّة. كما تميّزت الكتابة النّسائيّة المغربيّة بالإنتاج الواقعيّ هذا وقد حققت نقلة نوعيّة في توليد الدّلالات واستحضار المتخيّل القصصيّ ممّا جعلها نموذجاً نسائياً مغاربيّاً مستحدثاً وقد أثارت جملة من التّيمات الوجوديّة تتداخل الواحدة مع الأخرى تداخل ينمّ عن ظهور وعي نسائيّ أخذ على عاتقه مهمّة تشخيص الواقع برؤية جديدة وبشكل يجعل المرأة تنقل أحاسيسها وهواجسها وتطلّعاتها فتعرب عن موقفها إبداعياً وتبين عن موقفها وفلسفتها. وسنهتمّ في هذه الورقة البحثيّة بالقصة القصيرة المغربيّة وسنعدّل عن سواها. وفي محاولة منّا لعقد مقارنة بين التّراكم الذي حقّقته القصة القصيرة في الأدب المغاربيّ على إمتداد حوالي نصف قرن من الرّمن ومن النّشاط النّقديّ الذي واكبها فإنّنا واجدون بالتّأكيد أن ثمة حيفا نقديّاً طال هذه القصة؛ إذ أنّها لم تنل حظّها الوافر من النّقد الذي ظلّ لعقود طويلة منصرفاً إلى القصيدة والرّواية، فكلّ ما هنالك مقالات قليلة وأبحاث معدودة ودراسات نقديّة محدودة. وقد ران على هذه الكتابات الهمّ التّاريخيّ؛ إذ إنصبّ جلّها على بحث أولويّات القصة القصيرة المغربيّة وجذورها ورصد تطوّرها وإمتدادها والذي إرتبط منذ نشوئه بالواقع والإنسان معاً. هذا بالإضافة إلى أنّه ليست هناك دراسة جامعة شاملة تعرّضت إلى تناول القصة القصيرة في الأدب المغاربيّ الحديث والمعاصر، بل إنّنا نلفي دراسات وأبحاث تعالج الإتّجاهات القصصيّة في أدب كلّ قطر مغاربيّ على حدة. وفي أحيان كثيرة نجد الكاتب يفرد لهذه الإتّجاهات القصصيّة حيّزاً فقط من دراسته، ولعلّ ذلك مردّه إلى التّحقّظ وعدم تجرؤ كثير من النّقاد على الحديث عن هذه الإتّجاهات في الأدب المغاربيّ الذي ما يزال حديثاً بالقياس إلى الأدب المشرقيّ أو الغربيّ.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الفنّ القصصيّ المغاربيّ قد مرّ بمرحلة تجربيّة مليئة بالأخطاء والعثرات لينتقل بعد ذلك إلى أحضان الفنّ القصصيّ الصّحيح والتماسك. يصرّح "أحمد المديني" في هذا الصّدّد يقول: "إنّ إزدراء اللّون القصصيّ هو من أسرار تأخّر القصة القصيرة في المغرب"¹. وقد كانت لنشأة وتطوّر القصة

1- أحمد المديني، فنّ القصة القصيرة بالمغرب: في النّشأة والتطوّر والإتّجاهات، دار العودة، ط1، (د.ت) ص 44.

القصيرة المغاربية علاقة بالتربية الثقافية المغاربية وعلاقة أخرى بالمحيط العربي والمشرقي منه على وجه الخصوص. والحال هذه لنا أن نطرح جملة من التساؤلات نجعلها كالاتي: ماهي اتجاهات القصة القصيرة المغاربية والقضايا التي تناولتها؟ وكيف تجسدت صورة المرأة في هذا الجنس الأدبي وماذا يضيف حضورها إبداعيا؟

2- اتجاهات القصة القصيرة المغاربية:

لقد تناول نقاد القصة القصيرة المغاربية مجموعة من المقاربات والمناهج النقدية في دراساتهم ويمكن ذكر المنهج التاريخي والمنهج الفني والمنهج البيبليوغرافي والمنهج السيميائي وجمالية القراءة والتقبل. وقد تتداخل هذه المناهج النقدية فيما بينها في النص الوصفي الواحد.

وفي خضم هذا الطرح لنا أن نتساءل عن الاتجاهات التي تناولتها القصة القصيرة المغاربية وتناقلتها وجعلت منها تيمة أو موضوعا. وانطلاقا مما سبق يمكن تنضيد القصة القصيرة المغاربية وتصنيفها إلى خمس اتجاهات أي أشكال قصصية؛ وهي القصة التاريخية والقصة السياسية والقصة التأملية والقصة الاستلابية والقصة المجتمعية. وقد حاول "المديني" أن يدافع عن قضية الاتجاهات في القصة المغاربية المعاصرة. يقول: "وقد رأيت أن المادة القصصية لفترة الستينات وعند القصاصين الذين انتظموا في كتابتها قد سلكت مسالك فنية ومضمونية متعددة وأنها قابلة للخضوع للتعدد ففرزتها؛ فيما لمست أنها تمثل من اتجاهات تمثل الوحدة في الشكل والمضمون أي تقوم على أساس من تجانس العناصر والأدوات الفنية المستخدمة، وكذا من تماثل في الرؤية المطروقة. وهكذا فإني أعتقد أن إعطاء صفة أو تسمية اتجاه ليست إسقاطا أو وضعاً مسبقاً ولكنها تعني الوحدة أو على الأقل التقارب في الرؤية الفنية والفكرية"¹. وقد احتفلت القصة القصيرة المغاربية في القرن الماضي بسؤال الهوية والوطن اللذين حاولت قوى الإستعمار الغربي طمسهما ومحوهما ، لكن بمجرد أن نالت أقطار المغرب العربي استقلالها السياسي، أخذت تطفو على الساحة الأدبية القضية الاجتماعية وهاجس البناء والتشييد. وكان على الأدب عموماً أن يسير في ركاب هذا التوجه الجديد وهيمنة المضمون الاجتماعي على الإبداع المغربي خلال الفترات التي أعقبت إستقلال الأقطار المغاربية والتركيز على هذا المضمون في أقصوصاتهم.

وبعيدا عن التاريخ التقليدي للقصة المغاربية وبيداتها ونشأتها، وقد بات معروفاً ومحفوظاً عن ظهر قلب - وبعيدا عن المقولات الجاهزة التي يجري إطلاقها حول هذا الفن أو ذلك، وبعيدا عن النقد المجامل أو المتحامل، وبعيدا عن حضور القصة في المزاج القرآني للناس وقدرتها على التأثير في متلقيها بهذا الشكل أو غيره، وقريبا من روح القصص وجماليته التي تحمل الروح إلى نفسها وتضع القارئ أمام مراهات المتعددة ليرى الصورة كما ينبغي للقاص أن يراها - يمكن القول إن القصة القصيرة في المغرب العربي تمتلك الكثير من السمات والخصائص الفنية والمضمونية بالقدر الذي تمتلك فيه إشكالياتها وأسئلتها وإنشغالاتها، وتمتلك

2- المرجع نفسه، ص 24.

حضورا يصعب إنكاره في المشهد الثقافي؛ وهو حضور يرى بعض النقاد والعارفين بالشأن الثقافي أنه الأكثر بروزا ونموًا وتطورًا بين صنوف الإبداع الأدبي الأخرى مثل الشعر والرواية .

وإذا كانت القصة القصيرة المغاربية في بداياتها قد تأثرت بالقصة في الوطن العربي وتماهت أحيانا مع قضايا المجتمعات الأخرى، فإنها سرعان ما شقت طريقها ونحت إتجاهها الخاص لتمتخ من مضامينها وتلتصق بالواقع والمعيش وتتصل أشد الاتصال بمظاهر التغيير الاجتماعي؛ بذلك أصبحت القصة القصيرة لسان حال كتّابها يعبرون فيها عما يحدث حولهم وعن أشواقهم وأحلامهم وخيباتهم ورؤاهم المختلفة عن البدايات الأولى. ويلاحظ المتتبع لحركة القصة القصيرة في المغرب العربي وجود عدد من النقاد يصرون على تقسيم القصة القصيرة التونسية الحديثة والمعاصرة إلى اتجاهات أو تيارات؛ منهم محمد فريد غازي في كتابه "الرواية والقصة في تونس من سنة 1930 إلى 1960"¹ وتوفيق بكار وآخرون. ويرى محمد صالح الجابري أنّ تصنيف القصص التونسية الحديثة إلى اتجاهات ينطوي على كثير من التعسف؛ ولكنه يركب هذا التصنيف لضرورة منهجية ليس إلا. يقول في هذا الصدد: "ومن اللازم أن أذكر أنّ تأطير هذه القصص في اتجاهات هو من المسائل الإجتهادية التي تنطوي في بعض حالاتها على كثير من التعسف، كما لا تخلو من المزالق. لكن ذلك – كما بدا لي – هو الطريقة المثلى لصوغ هذا الشّتات المتناثر والذي لا يمكن دراسته إلا من خلال هذا التشابه وهذه الملامح المتوحّدة"². فقد أخذت القصة القصيرة التونسية تبحث لها عن مستقرّ بين الأجناس الأدبية التي تبدو كأرخبيل متحرّك تختلف جزره من حيث الحجم والمناخ، فقد أحدثت القصة القصيرة التونسية مكانة متميزة من الأدب التونسي الحديث باعتبار أنّها وقّرت أحد أهمّ الشّروط الفنية لكتابة هذا الصّنف الأدبي اعتمادا على تقنيات حديثة ومعاصرة اختبرتها الآداب الأخرى وارتبطت بشكل وثيق بمشاكل المجتمع الذي وجدت فيه.. وقد توقّف أحمد السماوي عند هاجس التّأصيل في الأقصوصة التونسية، ورأى أنّ الإقبال على كتابة الأقصوصة في تونس في العقود الثلاثة الأخيرة صار كبيرا رغم صعوبة هذا الفنّ. وأشار إلى ظهور أسماء نهت لأهمية هذا الجنس السرديّ الوجيز. وقد وجد هؤلاء "الأقصوصيون" في دور النّشر ترحابا وتشجيعا. وتميّز هذا الإبداع الأقصوصي باسترفاد الأجناس السردية التراثية التي أعاد "الأقصوصيون"³ إحيائها وإخراجها مخرجا حديثا. كما اعتبر أنّ القصة القصيرة في تونس تتميّز بمضامينها وأشكالها؛ وهو ما أوجد لها منتديات وأجيالا ما إنفكّت تبرهن على قدرتها على التّأقلم مع الأوضاع الاجتماعيّة وكذلك مسايرتها للأشكال الأدبية⁴. وبناء على هذا تحدّث الناقد عن ثلاث اتجاهات بارزة في القصة القصيرة التونسية وهي: اتجاه قصص الحنين، والاتجاه السياسيّ والاتجاه

1- محمد صالح الجابري، القصة التونسية: نشأتها وروادها، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله، ط1. تونس 1982. ص 71.

2- المرجع نفسه.

3- العبارة للدكتور أحمد السماوي.

4- ورد هذا في فعاليات الندوة الأولى للمعرض الوطني للكتاب التونسي بتاريخ 19 أكتوبر 2018.

الإجتماعي¹. ومن هنا نجزم أنّ الإقرار بوجود إتجاهات في القصة القصيرة في الأدب المغاربي أمر محفوف بكثير من المزالق؛ ولكننا سنصطنع هذا الأمر تيسيرا للدراسة.

والحق أنّ القصة القصيرة المغاربية لم تنفصل يوما عن مجتمعا ولم تزايل قضايا ملايين الجماهير، بل كانت منذ فجرها شديدة الارتباط بالواقع والإنسان معا.

ومن بين كلّ هذه الموضوعات والاتجاهات، سنهتمّ بالإتجاه الإجتماعي في القصة القصيرة المغاربية وخصوصا موضوع المرأة الذي إستأثر بإهتمام العديد من القاصين والقاصات في الأدب المغاربي الحديث والمعاصر، وذلك بالنظر إلى خطورته، إذ عولج من زوايا مختلفة وعبر محطات متعدّدة؛ فقد تطرقت القصة القصيرة المغاربية إلى إثارة قضايا الحجاب والسفور وخروج المرأة إلى العمل واختلاطها بالرجال ونظرة المجتمع إليها. كما تناولت هذه القصة موضوع الأسرة انطلاقا من بدايتها (الزواج) مروراً برصد العلاقات بين الزوجين وبين الأبناء، وانتهاء إلى ما قد تؤول إليه رابطة الزواج من انفصام وإنحلال. ولم يفت القاصين المغاربيين التعرّيج على قضايا أخرى ذات صلة بموضوع المرأة والأسرة كالعنوسة والخيانة وإهمال الأسرة وتفكّكها وتشرّد الأطفال وتعدّد الزوجات الخ... وتتميّز الكتابة النسائية القصصية القصيرة بالمقارنة مع الكتابة الذكورية بمجموعة من السمات والخصائص. ومن بين هذه المميّزات في المستوى الدلالي، طرح جدلية الذكورة والأنوثة عبر محوري الصّراع والتعاشيش، والتّركيز على البيت والتّربية برصد التناقضات المتفاقمة، وتبيان التفاعل السيكو-إجتماعي والقيمي والإنساني والإنطلاق من الذات الشعورية واللاشعورية في التعامل مع الظواهر الحياتية بغية تحقيق التّواصل القيمي والاجتماعي والإنساني والتفاعل مع منطوق الأشياء، والارتكاز إلى أعماق الدّاخل الوجداني، والتّركيز على المكبوتات الواعية واللاواعية في إستعراض المشاكل الداخليّة والذاتية، والإهتمام بكلّ تناقضاتها الإنسانيّة، علاوة على الإهتمام بجسد المرأة الجمالي والإيروسّي والشبقيّ والعزف على نغمة الحبّ وإحباطه الواقعية والزومانية والجنسية، وإستعمال الخطاب العاطفيّ والوجدانيّ والإنفعاليّ مع الإكثار من البكائيات الحزينة والمواقف التراجيدية والإهتمام بالتخييل الحلبيّ والرّومنسّي؛ وذلك على حساب فظاظة الواقع ومرارته الشديدة، والبحث عن السعادة المفقودة تلذّذا وانتشأء، والتّطلّع إلى الزواج الطّوباويّ، كما لا ننسى التّعنيّ بالسّأم واليأس والملل.

هذا وقد سارت الكتابة النسائية بالمغرب العربيّ شوطا كبيرا في مجال القصة القصيرة. وإذا كان الإبداع النسائيّ في هذا المجال قد فرض نفسه بإلحاح وأصبح ظاهرة أدبية لافتة للإنتباه، فإنّ النقد النسائيّ العربيّ في مجال القصة القصيرة مازال متعثّرا بالمقارنة مع النقد الذكوريّ المطرد. وقد ظهرت في السّاحة الأدبية التونسية العديد من الأقصوصات تطرّق فيها كتّابها إلى إثارة قضايا المرأة مثل قصة "يد" للتونسي رشيد الغالي سنة 1978، حيث أبرزت إنعكاسات خروج المرأة من بيتها للعمل على الجوّ العائليّ. كما أثّرت قضيةّ الزواج بالأجنبيّات كما في قصة "سرّ خديجة" للكاتبة التونسية "أمنة مصطفى" وظهرت أقاصيص تلحّ على حقّ المرأة في إختيار شريك حياتها بكلّ حرّيّة كما في قصة "أسلم السّير في الضيّاء" للتونسية "هند عزّوز"

1- محمّد صالح الجابري، مرجع سابق، ص 30-71.

سنة 1976. وفي السّنوات الأخيرة برزت مجموعة من القاصّات اللّواتي اقتلعتن لهنّ مكانة معتبرة في المشهد القصصيّ بشكل خاصّ والثّقافي بشكل عامّ، إذ أصبحت القاصّة قادرة على طرق الأبواب الموصدة والحديث عن قذارة المجتمع ودهائه مثلها مثل الرّجل رغم صعوبة ذلك في مجتمع ذكوريّ يربط ربطاً اعتباريّاً بين الشّخصيّة الأنثويّة القصصيّة وذات القصّة/المراة؛ وهو من معوّقات الإبداع الأدبيّ الذي يقتضي قدرات خاصّة غير متوقّرة عند عموم النّاس ولا يكفي وجود الفكرة أو الحدث لنشأة القصّة.

3- أسئلة الوجود عند المراة في أقصوة "للنساء وجع آخر" لـ "نجاة إدهان":

وحقّي لا يبقى هذا الكلام فضفاضاً وعماماً، إختارنا لدراستنا قصّة قصيرة تونسيّة حديثة هي "للنساء وجع آخر"¹ للكاتبة نجاة إدهان؛ وهي تونسيّة تعمل أستاذة في اللّغة والأدب العربيّ وتكتب القصّة والرّواية. و من مؤلّفاتهما "وطن بطعم البرتقال"، "أعداء الله"، "رحم الأرض"، "هذا ليس لك". وقد صدرت المجموعة القصصيّة "للنساء وجع آخر" في أكتوبر 2014 عن دار رسلان للطباعة والنّشر.

وإذا أنعمنا النّظر في العنوان بما هو عتبه أولى، فإننا نلاحظ أنّه قابل لقراءة تأويليّة، إذ تقرّ الكاتبة بأنّ للنّساء وجعاً؛ لكن أيّ وجع تقصد؟ قد يكون وجعاً يجهله الرّجال؛ وقد يكون وجعاً آخر مخفياً غير معروف أو متداول بين النّاس. ويحمل العنوان بين طيّاته تأويلاً خفياً سيّضح في ثنايا التّحليل؛ وهو عنوان يعبر بكثير من العمق عن المجموعة القصصيّة التي تناولت فيها مجموعة من الأعطاب الإجتماعيّة. وهي مستقاة من صلب المجتمع حيث تنمو الغواية دون وازع، وكثيراً ما تكون المراة ضحيّتها.

تكشف القصّة عن مرجعيّة ثقافيّة غنيّة بالمستنسخات والإحالات التّناسيّة والمعرفة الخلفيّة الزاخرة بالحمولات المعرفيّة الأدبيّة والفنيّة والعلميّة. وقد استطاعت الكاتبة أن تصهرها في بوتقة سرديّة موحية أحسنت إخراجها قصد إيصال رسالتها. وهذه الخاصيّة هي التي تفرد "نجاة إدهان" عن باقي رواد القصّة القصيرة، إذ لا بدّ للمبدع من تنوع بداياته ونهاياته كأن يستخدم مثلاً بداية خارقة أو بداية حاملة أو بداية فضائيّة أو بداية حديثيّة أو بداية شخصويّة.

ورأت الكاتبة أن تفتتح مجموعتها بتصدير هو التّالي: "للنساء وفي النّساء كثير من الفرح لكننا غالباً ما نسرقه وندفنهنّ أحياء..". ونحن نعلم أنّ التّصدير عتبه من عتبات النّصّ ترغّب المتلقّي في الغوص في المتون. وانطلاقاً من التّصدير يتّضح لنا أنّها ستعالج أحلاماً مفتكّة وطموحاً مضطهداً؛ ويتكوّن هذا الأثر من اثنتي عشرة قصّة جمعها العنوان: "النّساء وأوجاعهنّ"؛ إنّها قصص تدقّ أبواباً أخرى غير التي تتداول وتختزل قضيّة المراة في حرّيّة السّلوک وغيرها، إذ لم تعد المسألة مسألة حرّيّات بل مسألة وجود تعيشه كلّ النّساء باختلاف الأعمار والخصائص النّفسيّة وحقّي الفكريّة. إنّها وجع المراة المثقّفة والمبدعة والمراة الأمّ والزّوجة والبنت. وتتعدّد الوجوه لتثبت واقعا بغاية النّظر فيه نقداً وتقويماً حتّى تتجلّى المراة/الإنسان لا المراة/الأنثى فحسب. وشخصيّات نجاة إدهان أنثويّة مسكونة بالرّغبة في التّهوض وحاملة بالتّجديد.

1- نجاة إدهان، للنّساء وجع آخر، رسلان للطباعة والنّشر، ط 1، 2014.

إنها مجموعة قصصية تذكّر بأنّ وجع المرأة لا يختزل في الرّجل، إذ إنّ من النّساء من يُقتل حقّها في الحياة بمجرد إنخراطها في لعبة هي جملة مقولات مسقطه؛ فتسلّطها على امرأة أخرى تؤمن بالحياة أو حتّى على نفسها لينتهي الأمر بحلقة تزداد ضيقا في كلّ مرّة.

وبدت الكاتبة معنيّة بالحفاظ على عالم نقّي يسود حياتنا الاجتماعيّة؛ لذلك تقوم بتسليط الضّوء على العلاقة المشروخة بين الرّجل والمرأة. فقدّمها عبر صوت أعماق المرأة التي تبوح بالأمها وتسرد قهرها.

من هنا نلمس لدى الكاتبة تعاطفا ضمنيّا مع المرأة؛ فنسمع وجهة نظرها في حين يغيب صوت الرّجل في هذه القصّة حتى تبدو لنا في القصّة امرأة جديدة تبحث عن ذاتها، فنجدها عبر الإبداع الفنّي. كما أسهمت اللّغة في بناء القصّة واستطاعت أن تجسّد الحلم والمكوّنات الدّاخليّة اللاّشعوريّة الأخرى.

وقد جعلتنا الكاتبة نعيش تفاصيل الأزمة الوجوديّة التي تعيشها المرأة منذ الإفتتاحيّة؛ وقدّمت عبر ذلك كلّ صورة فنّيّة تشكّل معادلا لحقيقة بتنا اليوم نحائثها، وهي إفتقاد كلّ ما هو جوهرّي ينعش الوجود الإنسانيّ ويعطي الحياة معنى. وما نلاحظه في هذه المجموعة هو تسليط الضّوء على صوت المرأة في لحظة تأزم. فتقدّم لنا الحقيقة العارية التي تعني خلاصة تجربتها المرّة في الحياة؛ هي لحظة مأزومة تمرّ بها المرأة تزيدها قلقا وخوفا من الحياة. كما فضّلت الكاتبة عدم استخدام ضمير الأنا المفردة في هذه القصّة ممّا أفقد الخطاب حميميّته وأدّى إلى جعله أقرب إلى الخطاب العامّ. فقد تطرّقت إلى وجع الكتابة في الأقصوصة الأولى وكيف أنّ الكتابة تولد من رحم المعاناة. وقد سبرت القاصّة أغوار نفسيّة المرأة ورسمت ملامحها؛ ومثاله القصّة الأولى الموسومة بـ "حُمى الكتابة". فقد صوّرت فيها الكاتبة عالم المرأة الإبداعيّ ووجع الحرف بما هو خلق للكلمة، لتستحيل الكتابة مخاضا وجنونا بل سعادة تشفيها من كلّ الأوجاع. وهي بمثابة علاج نفسيّ لآلام متراكمة في الأعماق ووجع يرقد في أحشاء الكاتب ويكبر داخله بهدوء، لكنّه يولد عندما تكتمل عناصره. والكتابة عند نجاة إدهان هروب من الواقع وثورة معلنة. تقول في هذا السّياق: "يكفيها أن تكتب الكلمة الأولى هي بسملتها لتعلن ثورة التّراتيل. تتناسل الكلمات وتتنفّس هي ملء جنونها تنسى كلّ العالم حولها بقواينيه وأحكام ليله ونهاره وتتعلّق روحها بسماء لا تُظلم (...) بديع أن تدرك مرتبة الخلق بكلّ ما فيها من رغبة في الفناء في الحرف"¹.

وليس غريبا على الكاتبة أن تطرح مسألة الكتابة حين نعلم أنّ علاقتها بالكتابة والحرف عميقة، إذ تصرّح في إحدى حواراتها فتقول: "أشعر بعلاقة غريبة تشدني إلى الحروف. ربّما كانت هذه بداية علاقتي بالقراءة والكتابة. أشعر أنّ روحا تسكن الحروف؛ وكلّما صيغت جملا شكّلت حياة جديدة. لذلك أوّمن أنّ للكاتب دورا هاما بإمكانه أن يحرك كلّ القيود التي تقتل الإنسان. الكتابة مشروع حياة"² ومن القضايا التي أثارها نجاة إدهان في أقصوصتها مسألة الشّرف والأنوثة كما تراها المرأة الأمّ. ففي القصّة الثّانية تعتمد كثيرا على

1- المصدر نفسه، ص 8.

2- حاورها الكاتب أحمد محمود القاسم بتاريخ 27 ديسمبر 2013 وقد أخذنا هذا الكلام من موقع: www.almoubadara.net بتاريخ 7 أبريل 2019.

الخيال؛ وهي بمثابة رؤية أم لبنت يترأى لها في الحلم أنّ ابنتها فقدت عذريتها، بل هي حامل في الحرام. فتعمل الأمّ على الخلاص من هذه اللعنة لأنّ: "الرجال لا يساومون في مسألة الشرف"¹. ثمّ تدرك أنّه حلم بل أضعاف أحلام وهو اجس.

كما تطرقت نجاة إدهان في مجموعتها إلى مسألة الخيانة وعدم الحرّية في اختيار الزوج من خلال القصة السادسة والموسومة بعنوان: "معركة خاسرة"، تلخّص فيها حياة امرأة لم تتزوج من تحبّ، بل كان زواجها تقليدياً. فصوّرت عدم الوفاق العاطفي بين الطرفين ومعاناة جمود المشاعر. تقول الكاتبة في هذا الصّدّد: "كان لوقع الخطى المتسارعة نحوها أثر غريب. استسلمت كأنّه الموت، كأنّها معركة خاسرة، كأنّها آخر الخطى وكأنّه آخر نفس"². كما تناولت الكاتبة مسألة الأمومة والخيانة وغيرها من القضايا التي لن نأتي على ذكرها جميعاً.

ومن هذا المنطلق، نستطيع الجزم بأنّ نجاة إدهان قد عمدت إلى النفاذ إلى عمق معاناة الشخصية؛ ومنحت المناخ النفسي الخارجي أوصافاً تصبّب إيقاعها وتواترها في العوالم الداخليّة للشخصية، فتتلاحم الأشياء المحيطة بالإنسان بوصفها جزءاً من علاقته الاجتماعيّة وهي أبرز المزايا والخصال الفنيّة في قوتها. تفتتح هذه المجموعة القصصيّة: "للنساء وجع آخر" لنجاة إدهان على وجع الوجدان والنفس والفكر لتخبر بأنّ المرأة مسكونة بالحلم وبإمكان تحقيقه. إنّها مجموعة تتنالى قصصها وتصور عوالم تبدو مختلفة لتنوّع الشخصيات، لكنّها ترصد واقعا إنسانياً عامّاً. وربّما لذلك جعلت الكاتبة شخصياتها دون أسماء. فهو سؤال الكتابة عن الوجود بكلّ وجوهه ودلالاته وعراقيل إكتماله؛ وهي مجموعة تجعل الفرد موضوع تفكير فتنتصر له كلّ الدّعوات إلى تغييره. كما تنتصر الكاتبة للغة فتسرد نصوصها بلغة تنتقي معاجمها وصورها وتتلبّس الدّوات فتجعل الفكرة همّاً إنسانياً يتسلّل إلى القارئ فيدفعه إلى التّفكير؛ وحينها يحقّق الأدب وظيفته.

ولعلّ هذه المجموعات القصصيّة قد أبانت عن العديد من المواقف التي تعيشها المرأة والتي تستطيع وحدها الكشف عنها بتفصيل مثل حالات الولادة والأمومة ومخاض الكتابة والخيانة. إلخ... إذ توغّلت القاصّة في عمق الذات النسائيّة وعبرت بلغة المرأة عن همّها وأحلامها وهواجسها وطموحها وخوفها ورغبتها. من هنا، وإنطلاقاً ممّا تقدّم، يمكن القول إنّ الأدب النسائيّ هو تعبير المرأة عن أجواء القهر والمصادرة في ظلّ إنغمارها بهذه الأجواء. إنّ طرق باب المسكوت عنه في سبيل الحرّية والإنعتاق وإثبات الذات. وقد أضافت مساهمات المرأة في الحقل الأدبيّ سمات جديدة فأعتبرت كتابات المرأة وسيلة من وسائل تحرّرها وسبيلاً من سبل الخلاص من وضعها في مجتمع لا ينزّلها منزلة متكافئة مع الرجل. وقد استلزم هذا النوع من الأدب قدراً لا بأس به من الجرأة.

1- إدهان، نجاة، للنساء وجع آخر، مصدر سابق، ص 23.

2- المصدر نفسه، ص 73.

لقد اتّسمت القصة القصيرة النسائية بخصائص وسمات ظلّت مغيّبة طوال الفترة التي إنفرد فيها الرّجل بكتابة القصة القصيرة منذ سبعينات القرن الماضي، حيث ظهرت أقلام نساء عربيات متميّزة في مجالات القصة بعد أن إقتصرت الخطاب على محاولات ذكورية عزفت عن رصد التّعابير النّاتئة الحاملة لبذور المناهضة وزحزحة مركزية الذكورية العربية المستأثرة. فتمكّنت القصة النسائية من تفجير الواقع وترتيبه من جديد، فأصبح رافدا لا غنى عنه للتخييل والحلم وتفكيك المقولات والمفاهيم النّقدية. وفي الاتجاه نفسه، يجب التأكيد على أنّ إبداعات المرأة العربية المكتوبة تبقى بحاجة إلى قراءة واعية للشروط والتّحولات، أي إلى قراءة تسهم في هدم كثير من الأحكام المسبقة تجاه المرأة وتسير باتجاه التأكيد على قيمتي الغيرية والاختلاف المتينين اللّتين يحملهما – ضمن ما يحمل- إبداع المرأة المكتوبة.

4- الخاتمة:

تلکم أهمّ القضايا والظواهر والعلاقات الاجتماعيّة التي شكّلت موضوعات القصة القصيرة المغاربية ذات المغزى الاجتماعيّ. ولاشكّ في أن ثمة قضايا أخرى لم نأت على ذكرها ومعالجتها لاعتبارات معلومة، ويمكن أن تكون محور دراسة أو دراسات مستقلة أخرى.

وما يمكن أن نستخلصه من هذه الدّراسة أنّ الكتابة النسائية المغاربية استطاعت أن تشقّ لذاتها مسارا ولو بنسب متواضعة مقارنة بإبداع الرّجل الذي أخذ زمنا في الكتابة والتأليف. فقد عالجت القاصّات المغاربيّات مواضيع شتى نابعة من عمق المجتمع؛ فكانت بمثابة تعرية لما تعانيه المرأة والمصلح في ذات الوقت؛ إنّها قصص عبّرت عمّا يخالج نفسيّة المرأة من حزن وفرح وخداع وخيانة وحب. وقد أصبحت الكتابة النسائية ظاهرة تسترعي الإنتباه والاهتمام لما تميّزت به من خصوصيّات فنيّة وموضوعيّة إذ تعدّ ملمحا من ملامح إبداع المرأة وتعبيرها عمّا يجول بخاطرها. ومن هنا تصبح كتابة المرأة المغاربية من الخطوات المهمّة في تاريخ الإبداع المغاربيّ بشكل عامّ.

ختاما، يمكن القول بأنّ المشهد الأدبيّ التّونسيّ يزخر بالموهب الشّابة التي تشتغل بجديّة بالنّص القصصيّ؛ لكنّها تشكّل في نفس الوقت مشهدا إضافيا يحتاج إلى نقد وتمحيص مختصّين وجديّين، وإلى دعم أكثر للتعريف بها.



5- المصادر والمراجع:

المصدر:

1- إدهان، نجة، للنساء وجع آخر، رسلان للطباعة والنشر، ط1. 2014.

المراجع:

- 1- الخطيب، علي سليم، عماد في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، 2009.
- 2- صالح الجابري، محد القصبة القصيرة التونسية، نشأتها ورواها. مؤسسّات عبد الكريم بن عبد الله، ط1 تونس، 1982.
- 3- كحوال، محفوظ، الأجناس الأدبية: الثرية والشعرية. دار "نوميديا" للنشر والتوزيع، ط1، 2007.
- 4- المدني، أحمد، في القصبة القصيرة بالمغرب: في النشأة والتطور والاتجاهات، دار العودة، ط1 (د،ت).